مجلة علمية دولية محكمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة جامعة تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.

المجلد: 07/ العـدد: 02/ ديسمبر (2023)، ص.ص.424-432

عتبة الفضاء والفكر التجريبي . قراءة في بعض روايات بشير مفتي -

The threshold of place and the new awareness - a reading of some of Bashir Mufti's novels .

سهام رابح
rabahsiham21@gmail .com
جامعة 20أوت 1955سكيكدة.
(الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2024/01/01 تاريخ القبول: 2024/05/26 تاريخ النشر: 2024/06/02

ملخص:

يبعث التجريب في الرواية على التفكيك الشكلي و المضموني ،فهو على صعيد الشكل على مستوى بنية المكان طالما عهدناه ثابتا ،قارا قوامه معالم مجسدة، لكن بدخوله حيز التجريب نجد أن هذا الثبات قد صودر فغدا متحركا و متشظيا ومتقطعا مبهم الصورة ،ثم إنه لم يعد ينشغل بالصدارة وتمثيل المركز كالرواية الواقعية إنما اقتطع لنفسه زاوية من زوايا الهامش فيكتفي بالورود ذكرا سريعا أو حتى تلميحا ،إن المكان في الرواية الجديدة خاضع للتعمية حيث يمارس تشويشا على المتلقي بالنظر لحدوده المبهمة بطمس معالمه بحيث تغتدي أسماء الأمكنة الجغرافية في الغالب أي شيء إلا أن تكون مكانا واردا على مألوف ما نجده في الكتابة الروائية ذات البنية السردية التقليدية، فكيف تجلت عتبة المكان من خلال المدونة السردية الجزائرية ممثلة في بعض روايات بشير مفتي؟

كلمات مفتاحية: المكان،الوعي الجديد ،التجريب، الرواية الجزائرية،بشير مفتي.

Abstract:

Experimentation in the novel inspires formal and content deconstruction. At the level of form, at the level of the structure of the place, we have always known it to be stable, stable, composed of embodied features. However, with its entry into the realm of experimentation, we find that this stability has been confiscated, and it has become mobile, fragmented, and intermittent, so that the names of geographical places often become anything but a place. It is typical of what we find in novel writing with a traditional narrative structure, and the same applies to the time that also expressed change. The same applies to time, which also expressed reversal through transgression and transgression. How was it manifested through the Algerian narrative code represented in some of Bashir Mufti's novels?

Keywords: *Place, narration, experimentation, the Algerian novel, Bashir Mufti.*

-أولا : في إشكالية المكان ،الحيز،الفضاء.

دخل الفضاء الرّوائي هو الآخر مغامرة التّجريب، ولم تعد النّظرة إليه على قدر من البراءة كما كانت سابقا، فلا يمكن أن يكون بلا معنى وقد سبق لـ"هنري لوفيفر" أن كتب :" الفضاء لم يكن أبدًا فارغا بل تكون له دلالة على الدّوام، فهو ليس مجرّد مكوّن مرمي في مساحات النّص بلا معنى"1.

هكذا زجّ بالفضاء في دائرة الاتّهام انطلاقا من كونه يحتضن نماذج إديولوجيّة معينة، تعيش في زمان ومكان محدّدين، وبهذا عُدّ الفضاء عنصرا مركزيّا لتشكّل النّصوص الرّوائية في علاقته بالشّخصيّات ،الأحداث ،وبخاصّة الوصف... فكان تبعا لذلك أن "كلّ تغيّر طرأ في البنية المكانيّة، سبقه بالضّرورة تغيّر في البنية الفكريّة"2، فهذا من تداعيات مقولة المكان المقدّس والمكان المدنّس وصلته بمختلف النّماذج البشريّة النّاشطة على سطحه.

يُزاحم المصطلح العديد من المرادفات الّتي أفرزتها التّرجمة وما أحدثته من إشتراك مفهومي فنجد مصطلح، الفضاء، الحيّز، المكان،... كلّها تقابل المصطلح الفرنسي- Espace أو space بالإنجليزيّة والحقيقة أنّ جملة هذه المصطلحات في علاقتها بمفاهيمها تعكس نوعًا من التأزّم الذي ينحو نحو الإشكال؛ ففيما تنازل العديد من النّقاد عن جملة التّمايزات بين هذه المصطلحات، فجعلوا منها مترادفات ظهر فريق آخر ومنهم "عبد الملك مرتاض" و"حسين خمري" اللّذان أشادا بحساسيّة الفروقات بين كل من الحيّز والفضاء، فأكّد "خمري" أنّ المصطلحين لا يختلفان من حيث المفهوم فقط، بل حتّى في الوظيفة "حيث أن الحيّز يعني موضعة الأشياء والدّوال داخل مكان محدّد في حين أن الفضاء يحتوي الحيّز ويتجاوزه إلى المقام والسّياق معا"3.

وبهذا يتّضح طرفا للمعادلة، فالحيّز يساوي المكان من حيث المفهوم، أمّا الفضاء فتبدو مساحته أوسع إذ ينفتح على رأي "محمّد أدادا" على الزّمان والمكان"4، وبهذا يخطو الفضاء خطوات حثيثة نحو التّجاوز ونحصر دراستنا في عنصر المكان،فيا ترى ما طبيعته في نصوص بشير مفتي ؟ثم كيف تجلى إنطلاقا من إشتغال هذا الأخير على آليات سردية مخصوصة تضمن له في آخر المطاف حق التجاوز؟.

أ-عتبة المكان والوعي الجديد:

1-حركيّة المكان:

تسامى المكان عن مختلف الجزئيّات البنويّة الأخرى؛ فعُدّ أقدرها على تجسيد الكينونة بانقطاعها عن الذهنيّة البحتة، وقد خُصّ بهذا الامتياز انطلاقا من طبيعته الفيزيائيّة الجغرافيّة الّتي تحاول دائما إخراجه من دائرة التّجريد،فحتّى الكون "مكان" رغم إطلاقه (مطلق) وتجاوزه حدود القياس ،في الثّقافة اليهوديّة والمسيحيّة يبتدي الكتاب المقدّس: "بسفر التّكوين، ويخلق الرّب المكان قبل خلق الكائنات ويخلق لنفسه مكان "العرش" سواء كان ماديّا فيزيائيّا أو ما ورائيّا ذهنيّا، فإنّه يبقى مكانا"5.

قد يلمس القارئ نوعا من التّناقض الّذي يوحي به عنوان هذا العنصرحركيّة المكان- بنسبة الحركة إلى المكان الّذي يتميّز بالاستقرار والثّبات، لكنّ هذه المفارقة يبرّرها دخول الأمكنة هي الأخرى حيّز التّجريب والاشّتغال الفنّي على أمكنة نابضة بالدّلالات.

وعموما فقد استحوذ المكان _انطلاقا من طبيعته الفيزيائيّة_ على دور وظيفي وحيوي داخل الأعمال الفنيّة منذ "آرسطو"، لكنّها تبقى وظيفيّة مختزلة توحي بنوع من الإجحاف، حيث لم يتخطّ مفهومه ولا دوره دواعي الحاجة إليه كوسيلة، وليس غاية في نفسه، ففي المفهوم الآرسطي مثلا "اعتبر المنظر المكاني المسرحي، جزءا تزيينيّا خارجيّا أي مجرّد وسيلة لفعل المحاكاة وأُدرج هذا الجزء في المرتبة الأخيرة من سلّم الأجّزاء السّتّة الّتي تتركّب منها المأساة"6. وبهذا أنيطت الجماليّة بالفعل /الشخصيّات على حساب المكان، فبقي ينظر إليه كفُرشَة تؤسّس لوضع المعالم القاعديّة أين تسرح داخلها الأحداث.

هذا عن المنظور التّقليدي أمّا عن الوعي الجديد بهذا المكوّن والّذي أقرّ بأنّ المكان: "مسافة مقاسة بالكلمات ورواية لأمور غائرة في الذّات الاجتماعيّة، لذا لا يُصبح غطاء خارجيّا، بل هو الوعاء الذي تزداد قيمته كلّما كان متداخلا بالعمل الفنّي"7.

فخرج المكان عن النّظرة النّمطيّة القاصرة، وبات يُعلن عليه كقيمة تتموضع على مستويين، مستوى موضوعي يعكس عوالم جغرافيّة واقعيّة ضمن النّصوص مثل المقاهي، الحانات، البيوت... ومستوى نفسي- تخييلي يحلق في عوالم عجائبيّة كما في روايات الخيال العلمي وروايات الخوارق، التي تكون فيه الأفضيّة والأمكنة –تحديدا- أكثر سحريّة وغرائبيّة.

تتضّح -هنا بالفعل- حركيّة المكان التي أوّلت مفهوما جديدا لمصطلح الحركة فباتت تعني :"الانتقال من حال شعوريّة إلى أخرى أي أنّها تعني التّحوّل بالمفهوم السّيميائي" 8تجاوزا للسّكونيّة والاستقرار اللذان أحاطا بالمكان.

2-المكان المبهم:

أخذت -بهذا- الدّراسات النّقديّة، فالأعمال الفنيّة تأخذ منحًا جديدًا يبحث عن الحيّز الحرام وهو حيّز مُحرّم الوقوع أو مُحرّم العثور عليه، غير محدّد الاتّجاه تضيّع فيه النقاط الاستدلاليّة، والمكان القاصر عن الاحتواء وهو "حيّز شاسع، لا يتقيّد بمكان، ولا يتبوّأ منزلا من المنازل، وإنّما هو طائر في غير اتّجاه، وغائب في غير مكان... فضاء فارغ ولا محدود نحاول عبثا القبض عليه، ثم الحيّز الحالم الّذي أُعتبر بناءً ذهنياً/لغوياً بحيث يتمّ اللّعب بالأنساق اللّغوية لخلق هذا الحيّز" 9 الطّافي فوق حدود الوعي القديم بهذا العنصر لتقدّمه وسيلة فاعلة في الحدث، حيث تتعالى هذه الفعاليّة بمفهوم المكان تعاليا رمزيّا يعادل مفهوم الدّال وما يحتضنه من وقائع، حالات أو حتّى أشياء هي بمثابة المدلول، ذلك أنّها ممثّلة بمخزونات الزّمن القديم، ومختلف التّجارب التي قد توصل في نهاية المطاف إلى تمثّل منظور إيدولوجي بعينه، يتلبّس بالنّاص فتخرج آثاره تباعا مُسقطةً في زاوية المكان، فكلّ مكان يحاكي بالضّرورة شيئا ما في ذات الكاتب.

فالبئر دالّ على العمق الفكري والمقهى دالّ والتّجمع الشّعبي داخله مدلول والغرفة دالّ وما يستتر بين جدرانها من تضاربات الماضي والحاضر مدلول فالأماكن "تخرج من الطّبيعة إلى الفكر، من الشّيء الجّامد إلى الفعل"10 وبذلك تساهم في رفع مردوديّة النّصوص وفاعليتها.

لم يعد المكان ثابتا، قارًّا قوامه معالم عينيّة، إنّما –وبدخوله مغامرة التّجريب أو التجاوز أو الحداثة السردية عموما - نجده قد صودِرَ منه هذا الثّبات، فغدا متحرّكا متشظيّا متقطّعا مبهم الصّورة مشكلا -تماشيا مع هده الرؤية الجديدة- حالة من اللا تعيين ، ثمّ إنّه لم يعد يحوم حول حمى المركز (كالرّواية الواقعيّة)، إنّما اقتطع لنفسه زاوية من زوايا الهامش فيكتفي بالورود ذكرًا سريعا أو حتّى تلميحًا، إنّ المكان في الرّواية الجديدة خاضع للتعمية، حيث يمارس تشويشا على المتلقي بالنّظر لحدوده المبهمة "بطمس معالمه بحيث تغتدي أسماء الأمكنة الجغرافيّة في الغالب أيّ شيء إلاّ أن تكوم مكانا واردًا على مألوف ما نجده في الكتابة الرّوائية ذات البنية السّردية التقليديّة"11.

ب- **قراءة في بعض روايات بشير مفتي:**

1-المكان، اللاّأدرية :

يتطابق المكان في المدوّنة –موضوع الدّراسة- بل يُطْبِق على نفسيّة الشّخصية ،أو لعل هذه النفسيّة المتأزّمة هي الّتي لوّنت الجدران بالسّواد وهدّمت لبنات الأسوار، فلم يعد البيت/ الغرفة، مقاما آمنا –كما في المفهوم التقليدي- رغم سبك بنائه وحصانته، كلّ هذه القراءات يمكن أن يجتهد القارئ في صياغتها انطلاقا من انفتاح المكان على مختلف التّأويلات بارتياده سبيل الإبهام وتقصّيه دروب التّيه، كان ذلك في "بخور السّراب" الّتي اختارت له اسم "اللاّأدرية" "رأيت ما لا يراه الإنسان إلاّ في منامه، مكان لا يعلم بمكانه أحد،اسمه "اللاّأدرية"،طمأنت نفسي أنّني سأصل إليه ذات يوم... فمهمّتي الأساسيّة طوال هذا المشوار بين عذاب وفرح،ومزْقٍ من السّعادة ومزْقٍ من الكآبة ليس إلاّ امتحانا قبل الدّخول إليه، دخولا نهائيّا لا خروج منه بعدها أبدًا"12.

ثم إنّنا إذا ما اجتهدنا في تحديد ملامح المكان/ غير الموصوف، فما لنا من سبيل إلاّ اتّباع نثار النّفس والذّاكرة انطلاقا من تصوّر طبيعي مفاده أن "بيت الإنسان امتداد له، فإذا وصفت البيت، فإنّك وصفت الإنسان"13.

وانطلاقا من هذه العلاقة التّلازميّة، تعدّدت مطايا الأمكنة الّتي حلّت بها الذّات السّاردة سواء كان ذلك واقعيّا موضوعيّا أو ذهنيّا نفسيّا بالاستعانة بالذّاكرة المثقوبة الّتي راحت تعيد اجترار تجارب الماضي أين تسلّلت عبر أسوار النفس وانفتحت على ماهو أبعد منها.

تتميّز الأمكنة –في نصوصنا- وتتعدد صفاتها ، كما أنها تحل محلّ النّفس، وتصطبغ بألوانها فهي مساحات فضفاضة جوفاء تتأبّى عن التّحديد والوصف إنّ المكان في رواياتنا بدا مضمرًا على الدّوام...

تحضُر داخل نصوصنا الرّوائية نماذج كثيرة عن الأمكنة فنجد: غرفة الإنعاش، الفندق، الغرفة، البيت، المقهى، قاعة الأساتذة بالجامعة، مكتب الصّحافة، مكتب المحاماة، الشّارع، القرية، المدينة، المقبرة، والأمكنة المفتوحة على أبعاد صوفيّة، أسطوريّة، نفسيّة كـ"كاللاأدرية"، فتنوّعت بذلك بين أمكنة مغلقة وأخرى مفتوحة اسميّا لكنّها هي

الأخرى خاضعة لنفسيّة الشّخصية المتأزّمة، مما يجعلها تتّسم بالضيق والخواء متجاوزة دلالة المكان في بعده العيني التّزييني، ليؤدّي معاني النّفس إنّه "قائم بالمعنى الرّوائي الّذي يعبّر عنه السّرد، فإسقاط الحالة الفكريّة أو النفسيّة للأبطال على المحيط الّذي يوجدون فيه يجعل للمكان دلالة تفوقُ دوره المألوف "كديكور" أو "كوسط".14

والأوساط الّتي انتقاها السّارد كانت لاستيعاب فيض نفسيّته، لا احتواء أحداث الرّواية، فكانت تتّسم بالسّلبيّة والنّظرة الاحتقاريّة الّتي تجعل من المكان معادلا لـ"اللاّشيء"، بل للشّيء المنبوذ الممقوت المخيف بعدما كان يعادل الأمان والاستقرار، الشّارع الآن بات مأوى "المجازر الجماعيّة، للخوف والصّدمة، العنف والجريمة، القتل والذّبح الرؤوس المقطوعة، والأجسام المغتصبة، رجال ونساء وأطفال، كلّ ما يحدث هناك، مروّع وفاجع، للغاية، إنّه قيامة حقيقيّة".15

هكذا بدا الشّارع على الرّغم من انفتاح حدوده –إلاّ أنّ دلالته انغلقت على معاني الموت والخراب، فتشابه بذلك مع بقيّة الأفضيّة المغلقة نقرأ :"وأنا لوحدي في الغرفة الضيّقة التّنة الّتي صارت تشبه فجأة جلد ذئب ضيّق، ميّت، صار عرضة لكل القنّاصين، والمجرمين وفاقدي التّبل الإنساني".16

يستند المكان- لحظة تمظهره داخل جسد النّص-على الوصف الّذي كان هنا مجازيّا تشبّهت فيه الغرفة كموجود موضوعي بجلد ذئب ميّت وربّما كان وجه الشّبه محصورًا في مساحة نفسيّة تُنْتش (من الإنتاش) داخلها بذور الحيرة واللاّطمأنينة واختزال كونيّة العالم وشساعته في حدودِ ذاتٍ ضحلةٍ، مسيّجة بأسلاك القلق والاضّطراب، في دنوّها من مناطق العدم، كلّ هذه المعاني، ينطق بها المكان في صمت "إنّ المكان ليس مسطّحا أملس أو بمعنى آخر، ليس محايدًا أو عاريا من أيّة دلالة محدّدة".17

2-المكان الثقب:

ومن غرفة التوم أو الإنعاش إلى الشّارع أو حتّى المدينة، الأمر سيّان ومستوى المكان ودلالته تسير في خطّ مستقيم، إنه ضيّق والأفق محدود، فلا مجال لهروب التّفس من هذه الأقفاص إلاّ بحلّ واحد تصرّح به الشّخصية "أبدأُ في تمتين علاقتي بالمكان، لا كحيّز مادي، ولكن كحالة تستنطق ذاتي وتخرّب مشاعري، وتُفلت منّي عبر تموّجات التّاريخ المتحرّك".18

لكنّ هذا الحل –هو الآخر- يبقى عاجزا عن صوغ عوالم جديدة تمكّن الإنسان من العيش بأمان فيوكل الشّخصية إلى التّخمين في أبعاد فضائيّة أخرى لا يصل إليها الإنسان إلاّ بالهجرة نقرأ :"سيحدّثك "مقران" عن سنواته الباريسيّة ويطلب منك –إنْ كان لك عقل صاحٍ بعض الشّيء- أن تحمل حقيبتك أو لا تحمل أيّ شيء، وتهاجر من هذا الثّقب، أهربْ من هذا الحيّ الملعون، من هذه المنطقة الملعونة، رأس إفريقيا الملعون، إفريقيا المفرّقة للقلوب والأرواح والعقول".19

نلمس هنا مفارقة الأمكنة بحيث تغدو هذه الأخيرة إمّا مجلبا للّعنة والتّفرقة أو مرتعا للأمان المنشود لنرى الخيال: "يبني جدرانا من ظلال دقيقة، مُريحًا نفسه بوهم الحماية، أو نراه يرتعش خلف جدرانٍ سميكة مشكّكا بفائدة

أقوى التّحصينات وعليه، فإنّ ساكن البيت يُضفي عليه حدودا"20، هذه الحدود تطول أو تقصر- فيتّسع بذلك الجدار ويضيق بحسب ما تسمح به النّفس في علاقتها بالرّاهن.

يُسقِطُ المكان شيئا من كينونته على ساكنيه فيغتدي ساكنه مسكونا بهواجس المكان "رأيت في وجه كريمة عذابات الحياة في هذا الحي، حي النّقب الكريه، الّذي زادت نسبة أطفاله، وتكاثر نسله، وصاروا الآن مثل جيش جرّار بلا كرامة،... سيذهب إلى الموت طواعية... من الجوع، من الحرمان أو البلاهة أو الرّجولة ليدفعهم ببطء فاجع نحو الألم والنّهاية".21

نلحظ –هنا- وصفا تصويرياّ بارعا لمكانٍ تغشّاه الألم فحبل طويلا بأبناء معوزّين ماديّا، فيزيائيّا وحتى ذهنيّا، هذه المقدّمات تُحيل كلها بطريقة استلزاميّة على نتيجة أحاديّة هي استمرار المعاناة والضّياع داخل المكان "العجيب الواسع والمكتظّ، العنيف والجميل، القذر والبريء" كلّها تناقضات مُبهمة وغريبة غرابة نماذجه الحيّة، فمِن أعلى الشّرفة المطلّة على "حيّنا القذر بصورة كاملة، كانت العمارات مكتظّة حتّى الآخر، ومُحاطة بسياج من البيوت القزديريّة، وحسب الاحصائيّات... فإن عدد السّكان يتجاوز مئة ألف نسمة...في حيّ واحد لا يتّسع في الحقيقة لأقلّ من عشرة آلاف نسمة".22

نزل النّص بالمكان إلى حدود الواقعيّة –في لفتة تقليديّة- أراد البحثَ -من خلالها- في سجلاّت الحاضر عن علّة الأشياء محاولا قراءة الواقع تخييليّا وصفيّا، وتقديم هذه القراءة الصّامتة صمت بنايات المكان وعماراته وبيوته، والموحية بعنف الواقع وقبح الحقيقة "هاهي الشّوارع تعود إلى صورتها الأولى ...الصّورة المخرّبة، المشوّهة للمدينة التي طالما نُعتت بالبيضاء، هي برمادها، جيوشها، قاذوراتها، أوساخها، انفجاراتها، تقهقرها، سرطانها، عنفها، وأحلامها".23

3-المكان الإنسان:

إن المكان مدينة بيضاء لأنّها لِبست كفنَ الموت وليس للشخصيّة –في هروبها من هذه الأجواء الجنائزيّة المحيطة بالمكان- إلاّ قصد السّبيل نحو المقاهي لنرى نموذجا آخر لنوعيّة الأفضية المكانية "كان المقهى المفضّل لكلينا بالرّغم من قذارته، المقهى الأكثر صدقا، بالرّغم من روائح البول الّتي لا تتوقّف –ولو للحظة واحدة- عن مطاردتنا منذ أنْ نجلس".24

تلتحف الأمكنة –عبر ساكنيها- بلحاف القداسة أو الدّنس فيحتقن إمّا بعناصر ذهنيّة، فلسفيّة أو عبثيّة تجاوزيّة، ولجوء الإنسان إلى تغيير المكان يكون لغايات نفسيّة كالقلق أو البحث عن الوجود الفردي أو للترويح عن النّفس عبر شطحاتها الصّوفيّة، على أن هذه الأخيرة ليست مجرّد شعور عابر "يقتنصه الإنسان من الزّمن المنفلت أبدًا، بل هو شعور يستبدّ بصاحبه ليستغرق كامل كيانه ويحمله إلى عالم مفارق، عالم تمّحِي فيه التناقضات ويتحقّق فيه التّواصل التّام بين الإنسان والوجود".25

ونظرا لمساحة الحريّة والانتشاء الوقتي الّتي توفرها المقاهي أو حتى المخيّلة المتأثّرة بالفكر الصوفي كأمكنة تحقّق الوجود ذي الأبعاد الأخرى، فقد دخلت أجساد النّصوص للتّعبير عن جانب من المكان المعبّر بدوره عن الكائن، يقول

"ميرسيا إلياد" :"يرى الإنسان الديني أنّ المكان غير متجانس، فهو يحتوي على انقطاعات وعلى كسور، هناك أجزاء من المكان تختلف كليّا عمّن سواها... بدون بنية ولا قوام أي بكلمة واحدة أمكنة لا شكل لها".26

تتجزّأ في اتّجاهات أفقيّة وتصاعديّة لتنسج أفضية صوفيّة نفسيّة تستعصي على الإدراك "هل وصلت إلى ذروة شيء ما، مكان لا يمكن الانتماء إليه، مكان هو فوق وتحت، مكان ندخله، كما نخرج منه، نذهب إليه كما نغادره،لحظة واحدة مشبّعة بكلّ هذا وبغير ذلك".27

هكذا حُمِّل المكان ميثولوجيا كاملة –بمصطلح طرابيشي- تتحدّد معالمها بالمقهى حينا، "وقبّة الولي معزوز" حينا آخر، وبالعاصمة وحي النّقب، وقاعة الأساتذة بالجامعة، ولأن هذه الأماكن تحتوي مرجعيّا على زاد تراثي، فللقبّة وللولي... دلالتها.

وقد عَنَى كلّ من "آلان روب غرييه" في كتابه :"من أجل رواية جديدة" و"ميشال بوتور" في كتابه "بحوث في الرّواية الجديدة" بمسألة المكان فأكّد هذا الأخير أنّ المكان لا يفارق أحد الأمرين فالسّارد في تصوّره :"إمّا أن يفتح أفق المكان انطلاقا من وضع شخصيّات تتنقل فيه، أو أنّه يغطّيه بسطح كثيف وواضح، حيث يجعله قناعا لقضيّة أخرى في الرّواية".28

أخذ المكان -استنادا إلى هذا المنظور- يتجاوز بُعده المرجعي كجغرافيّا، ليتلبّس بنوع من الديناميّة التي أفقدته سكونيّته وسلبيته الهادئة، لقد أصبح عالما سيّالا لا منتهيّا،كما نُظر إليه كعنصر خاص يتأصّل بتاريخ تليد وتحكمه ميثولوجيا خاصّة تلبّست بالسّارد لنقرأ :"الجلوس بالمقبرة كان رائعا، وخلوة لا تشبهها أيّ خلوة أخرى، تُفتح حواس جديدة بالرّوح، ويحدث تواصل شبه سرّي بين الأرض والسّماء، وتعاطف خفيّ بين من رحلوا ومن بقوا على قيد الحياة، بدأتُ ... غسل شاهدات القبور، العناية بمن ماتوا فوحدهم هم يستحقّون أن نكافح من أجلهم، فهم يعرفون الحقيقة الآن".29

تحاول الذّات السّاردة استنطاق جزئيات المكان، واستقراء ما يقوله ساكنوه رغم موتهم الماديّ،فالميثولوجيا،تساندها المرجعيّة الدينيّة والفلسفيّة تُضفي نوعا من الحركيّة على الأجساد الّتي قُبِرت ومنها على المكان ككل (المقبرة)، في محاولة لإثبات الولاء لهذه الهياكل البشريّة والإسمنتيّة والإيهام بحضورها نفسيّا "حتى يُخيّل إلي أنها ما غادرت هذا المكان، وما كان بوسعها أن تغادره روحيا، هي التي صاغته وجوديا وتساكنت معه شعريا، فهو هي، وهي هو، المكان هو ذاكرة الإنسان الحيّة والمتبقيّة، والتي لا تفتأ ترسل من غياب ما، مراسيلها الشّفافة والغير المرئيّة والتي تبعث حزنا في الصّدور وفرحا في القلب".30

يحاول السّارد أن يعيش تجربة المكان، فيعمد إلى أنْسنتِه، وهو في سرده لعلاقة الجَدّة بعد وفاتها بالحديقة، بل وبالكرسي الذي كانت تجلس عليه، يحاول تسريب فكرة الحلول بتحريك الجماد وتمثّله بعضا من أحوال الأنسنة، أين يصبح المكان والإنسان سيّان، "هو هي وهي هو، إن المكان ليس كائنا ميّتا، بل هو حي يرسل بين الفينة والفينة علامات تعزز فكرة الوجود والحياة، والإنسان في حياته هو الميّت"31.

تتّحد الشّخصيات بالأمكنة في هذه المسافة :"بالجدران والنّوافذ والشّرفات، والغرف... وحتى بالأشجار والزّهور... لقد انتبه "جورج بولي" إلى أنّ المكان يرتقي بالكائن فيه إلى المستوى الذي يجعله يندمج فيه، مثلما يُسِرُّ الكائن للمكان الذي يوجد فيه بشيء من وحدته الخاصّة"32 في وعي متجاوز للعلاقة العرفيّة بين المكان والشّخصية.

خاتمة:

نلمس- من هنا- النّظرة الجديدة التي أولتها الرّواية التّجريبية لعنصر المكان فقد اكتسى طابعا دينيّا ديناميّا حركيّا يدحض مقولة السّكونية والتحجّر، الجغرافية، إنه الآن كائن مسكون بالميثولوجية والمرجعيات التي تعالت به في معراج الحداثة والتّجريب، فيتصبح بذلك معادلا موضوعيّا للإنسان، يُحاكي حالاته وأفعاله، فهو يبكي من الحزن ويئنّ من الاشتياق ويتأزّم مع ساكنيه، لقد جعلت الإديولوجية من المكان دالّا وما يخوض داخله من هواجس وتقاطعات هي المداليل، إنّه الآن يقول ما تعجز اللّغة عن التّصريح به، إنّه مكان تظهر كثافته في مناطق مُتَعيّنة وأخرى مبهمة طافية الأسيجة، وهنا يكمُن التّجريب ،وقد وجدنا "مفتي" يتحرّك في رواياته داخل تشكيلات مكانية غاصة بالدّلالات والإحالات الخاصة بالمكان الحركة، المكان اللّأدرية، المكان الإنسان، المكان (المقدّس والمدنّس)، المكان الميثولوجيا...

- قائمة الإحالات:

1.حسن نجمي: شعرية الفضاء السّردي، المركز الثقافي العربي، المغرب، دط، 2000 ـ،ص 84.

2.مراد عبد الرحمان مبروك: جيوبوليتيكا النّص الأدبي، تضاريس الفضاء الرّوائي نموذجا، دار الوفاء، مصر، (ط1)، 2002، ص 66.

3.حسين خمري: نظرية النّص، من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، منشورات الاختلاف، الجزائر، (ط1)، 2007، ص 391.

للتوسع حول هذه الإشكالية ينظر أيضا: حميد لحمداني بنية النّص السّردي، المركز الثقافي العربي، المغربي، ط3، 2000، ص 53، حتى 67.

4.صلاح صالح: قضايا المكان الرّوائي في الأدب المعاصر، دار شرقيات للنشر، القاهرة، (ط1)، 1997، ص 11.

5.يمنى العيد: فن الرّواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب دار الآداب. بيروت، (ط1)، 1997. ص 109.

6.ياسين النّصير: الرّواية والمكان، دار الشؤون الثقافية، العراق، (دط)، (دت)، ص 17

7.حسين خمري: نظرية النّص،(م.س)، ص 391.

8.المرجع نفسه: ص 393.

9.ياسين النّصير: الرّواية والمكان،(م.س)، ص 21.

10.المرجع نفسه: ص 162.

11.بشير مفتي: بخور السّراب، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2004 ص 120.

12.نعيم اليافي: عالم عبد الرحمان منيف الرّوائي، دار كنعان، دمشق، (د،ط)، 1995،ص 61.

13.حميد لحمداني: بينة النّص السّردي،المركز الثقافي العربي،المغرب،ط2000،3،ص 71.

14.بشير مفتي: المراسيم والجنائز، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1998 ص 82.

15.المصدر نفسه: ص 97.

16..محمد أدادا: الشعري في الكتابة الرّوائية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، (دط)، (دت)، ص 164.

17.بشير مفتي: أشجار القيامة،منشورات الاختلاف،الجزائر،ط2005،1، ص، 79.

18.المصدر نفسه، ص 68.

19.غاستون باشلار: جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت، (ط6)، 2006، ص36.

20.بشير مفتي: أشجار القيامة: ص .45

21.المصدر نفسه: ص 38.

22.شير مفتي: المراسيم والجنائز، ص 16.
23.شير مفتي: أشجار القيامة، ص .35
24.محمد التّاصر العجيمي: الخطاب الوصفي في الأدب العربي القديم، مركز النشر الجامعي، تونس، دط، 2003.ص 47.
25.فيصل دراج: : نظرية الرّواية والرّواية العربية ،المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2002. ص 252.
26.شير مفتي: أشجار القيامة، ص 09.
27.صلاح صالح: قضايا المكان الرّوائي في الأدب المعاصر،(م.س)، ص 30.
28.بشير مفتي: بخور السّراب، ص 36.
29.المصدر نفسه: ص 80.
30.بشير مفتي: بخور السّراب، ص 80.
31.المصدر نفسه ،ص نفسها.
32.حسن نجمي: شعرية الفضاء السّردي،(م.س)، ص323.140

-قائمة المراجع:

1.بشير مفتي: المراسيم والجنائز، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1998 .
2.بشير مفتي: أشجار القيامة، منشورات الاختلاف،الجزائر،ط،1.2005.
3.بشير مفتي: بخور السّراب، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2004.
4.حسن نجمي: شعرية الفضاء السّردي، المركز الثقافي العربي، المغرب، دط، 2000 .
5.حسين خمري: نظرية النص، من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، منشورات الاختلاف، الجزائر، (ط1)، 2007.
6.حميد لحمداني: بينة النص السّردي ،المركز الثقافي العربي،المغرب،ط2000،،3.
7.صلاح صالح: قضايا المكان الرّوائي في الأدب المعاصر، دار شرقيات للنشر، القاهرة، (ط1)، 1997.
8.غاستون باشلار: جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت، (ط6)، 2006.
9.فيصل دراج: : نظرية الرّواية والرّواية العربية ،المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2002.
10.محمد أدادا: الشعري في الكتابة الرّوائية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، (دط)، (دت).
11.محمد التّاصر العجيمي: الخطاب الوصفي في الأدب العربي القديم، مركز النشر الجامعي، تونس، دط، 2003.
12.مراد عبد الرحمان مبروك: جيوبوليتيكا النص الأدبي، تضاريس الفضاء الرّوائي نموذجا، دار الوفاء، مصر، (ط1)، .2002
13.نعيم اليافي: عالم عبد الرحمان منيف الرّوائي، دار كنعان، دمشق، (د،ط)، 1995.
14.ياسين النّصير: الرّواية والمكان، دار الشؤون الثقافية، العراق، (دط)، (دت).
15.يمنى العيد: فن الرّواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب دار الآداب. بيروت، (ط1)، 1997.